اللُّغة العربيَّة بإفريقيا.. تشخيصُ لواقعها واستشراف لمستقبلها

د. آدمَ بَمبا *

مقدمة:

يروم هذا المقال الإجابة عن سؤالٍ جوهريٍّ عن اللغة العربيَّة بإفريقياً جنوب الصَّحراء: تُرى ماذا يُتوقَّع أن تؤول إليه اللُّغة العربيَّة بإفريقيا في ظلِّ رهانات الحاضر؟ أو: ما مستقبل اللُّغة العربيَّة بإفريقيا جنوب الصَّحراء؟

وهذا سؤالٌ وجيه؛ بوصف اللغة كائناً حيّاً غير منفكٍّ عن عوارض الصِّحة والسَّقم، والنُّمو والاضمحلال، والتَّمدُّد والانكماش، والقوَّة والضَّعف، بل الموت والاندثار.

طرح السُّؤال السَّابق عن اللُّغة العربيَّة عدَّة دراسات في سياقات متنوعة، بما فيه السِّياق العربي نفسه، أي: مستقبل اللُّغة العربيَّة في عُقر ديارها، كما طُرح في سياق لغاتٍ أخرى كالإنجليزيَّة والفرنسيَّة، وغيرهما من اللُّغات(١).

والسؤال مهمٌّ للغاية إذا استصحبنا ظرف العولمة التي تهدِّد اللُّغات والثَّقافات في وجودها، ولم تبالغ بعض الدِّراسات في وصفها العولمة بمرض عُضال.. «إنَّ العالَم يعاني من مرض عضال: العولمة، إنَّ ديناميَّة الأخذ والعطاء في العولمة قد أدَّت بالدُّول الإفريقية إلى أن تعطي أكثر من أن تأخذ: لغاتها، وثقافتها، وهويَّتها»(٢)، ولم يبالغ آخرون إذ أطلقوا على اللُّغة الإنجليزيَّة واللُّغات الأوروبيَّة - وهي صاحبة الحظوة في مشروع العولمة - لقب (Glottophagous، Killer Languages) أي اللُّغات القاتلة(٣)، كما أطلقوا على العمليَّة التي تقوم بها تلك اللُّغات مصطلح (linguicide)، أي: إبادة لغويَّة.

في هذا السِّياق إذن؛ كان لا بدَّ لهذا المقال - في سبيل النَّظر في مستقبل العربيَّة بإفريقيا - من الانطلاق من رؤية عامَّة في واقع اللُّغات الإفريقية نفسها، ورؤية مماثلة من استقراء حاضر اللُّغة العربيَّة ببُعدَيه الدَّاخلي والخارجي، أي في الوطن العربيِّ وخارجه، خصوصاً في إفريقيا، ومن ثمَّ النَّظر فيما يمكن أن يتمَّ بين اللُّغة العربيَّة وبين اللُّغات الإفريقية من تبادُل وأخذ وعطاء في ظلِّ هذا العصر المشحون بتحدِّياتٍ كُثيرة، تهدِّد الشُّعوب ومقوِّمات بقائها؛ من عقيدة ودين ولغة وثقافة وفن.

وبناءً على كلِّ ذلك؛ من المكتسبات التَّاريخيَّة، وحقائق الواقع العربي بإفريقيا، يمكن الوصول إلى تكهُّن مقبول لما يُحتمل أن تصير إليه العربيَّة بإفريقيا، ومحاولة التَّدخُّل في هذا المصير المحتمل من خلال تعديل مسار العربيَّة في الحاضر، وتوجيهها الوجهة التي يُراد لها أن تؤول إليه بإفريقيا.

تجدر الإشارة إلى أنَّ مقالنا هذا تعوزه الدِّراسات الميدانية الحديثة، لاستطلاع آراء الأفارقة ومواقفهم حول اللُّغة العربيَّة، بمختلف شرائح المجتمع وطبقاته وعقائده،

(*) كاتب وباحث، وأكاديمي من ساحل العاج.

(١) من تلك الدراسات على سبيل المثال: أحمد بن النعمان، مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، دار الأمة، ٢٠٠٨م، ومحمد الصالح صديق، مستقبل اللغة العربية بأقلام كبار العلماء والأدباء والكتاب في القرن العشرين، دار هومة، ٢٠٠٧م، وكتاب: اللغة العربية: أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥م، وكتاب: مستقبل اللغة العربية في أمريكا: دراسة لغوية اجتماعية، ١٩٨٥م.

(٢) انظر: Azadeh Shafaei، Mehran Nejati. Global Practices of language teaching. 10.

(٣) انظر: Cecile B. Vigouroux، Salikoko S. Mufwene. Globalization and Language Vitality : Perspectives from Africa، 171.

من أجل تكوين تصوُّر عامٍّ، واستكمال الصُّورة الكليَّة لوضع اللُّغة العربيَّة بإفريقيا في حاضرها، وما يمكن أن يتمخَّض عنه هذا الوضع في مستقبلها.

أوَّلاً: اللُّغات الإفريقية: ملامح وإشكالات:

تحكم اللُّغات الإفريقية ظروف متشابهة ومتماثلة في ظلِّ احتكاكها باللُّغات الأخرى، وتدخُّل عوامل اجتماعيَّة وسياسيَّة عدَّة في مســار تلك اللُّغات.. إنَّ معرفة العوامل المؤثِّرة في اللُّغات الإفريقيــة، والتَّحديات المحدقة بهــا، ضروريَّة في مشــروع الأخذ والعطاء، والشراكة المأمولة بين اللُّغة العربيَّة وبين اللُّغات الإفريقية في الحاضر والمستقبل.

وفيما يأتي تحديــدٌ لبعض تلك العوامــل والظُّروف والتَّحدِّيات المتلبِّسة باللُّغات الإفريقية:

أ - لغاتٌ وافرة العدد:

تُعدُّ إفريقيــا أوفر القارات في التَّنوُّع اللُّغوي؛ إذ تفيد الإحصــاءات أنَّ لغــات العالم تبلغ حوالــي (٦٧٠٠) لغة، وأنَّ بإفريقيــا - وحدها - أكثر مــن (٢٠٠٠) لغة، أي أنَّ حوالي (٣٠٪) من لغــات العالم موجودة بإفريقيا[1]، ويحوز الغرب الإفريقي نصيب الأســد في هذا التَّوزيع اللُّغوي؛ إذ يبلغ عدد اللُّغات به حوالــي (١٢٠٠) لغة، كذلك، فإنَّ أهمَّ (١٣٠) لغة بهذه المنطقة، أي تلك التي يربو المتحدِّثون بها على (٢٠٠،٠٠٠) نســمة، تضمُّ أكثر من (٨٠٪) من ســكان المنطقة، بالإضافة إلــى أنَّ أكبر خمس لغات من بين تلك اللُّغات الكبرى المائة والثَّلاثين (هوســا، ويوربا، وفولاني، وإيبو، ومادينغ)، يفوق المتحدِّثون بها - مجتمعين - (١٢٠) مليون نسمة، هذا، وتظهر أهميَّة هذا الإحصاء إذا عُلم أنَّ تعداد سكان غرب إفريقيا هو (٣٠٨،٧٠٠) مليون نسمة.

مثالٌ آخر، وهو المثال النِّيجيري؛ إذ توجد بها ما بين (٤٠٠ - ٥٠٠) إثنيَّــة لغويَّة؛ لكنَّ اللُّغات الثَّلاث الكبرى بها (هوســا، ويوربا، وإيبو)، تمثِّل نسبة (٦٥٪) من عدد اللُّغات بنيجيريا[2].

والــدول الإفريقية أحاديَّــة اللُّغــة، أو ذات بضع لغاتٍ فحســب، قليلة نادرة، وربَّما شــاذة عن قاعدة التَّعدُّد اللُّغوي، كحال الصُّومال، وبها لغة واحدة، ومدغشــقر (الملاجاشية)، وجزر القمر، وبها السواحليَّة والقمريَّة (ينظر الجدول رقم ١).

ب - لغاتٌ ذوات اتِّساع ديموغرافي كبير:

خلافاً لما قد يوهــم القول بكثرة اللُّغات بإفريقيا من احتمال تخبُّط وخروج عن الانضباط، وفوضى في المستوى التواصلــي، فإنَّ ثمة حقيقة تحد من هذا الاحتمال، هي أن بين تلك اللُّغات لغات «عملاقة» كاللُّغات الخمس المذكورة آنفاً، وتبعاً للواقع الدِّيموغرافي للشُّــعوب الإفريقية الذي لا يخضــع - البتَّــة - للتَّوزيعات القطريــة الحديثة؛ فإنَّ أكثريَّة اللُّغات الإفريقية أيضاً لا تعترف بالحدود السِّياسيَّة الوهميَّة العشــوائيَّة، وهذا المحــدد - بالذَّات - هو الذي اعتمدتــه الأكاديميَّة الإفريقية للغات[3] في تصنيفها للغات الإفريقية، وهي بهذا الاعتبار ثلاثة أصناف:

١ - لغات غالبــة عابرة للحدود: وهــي اللُّغات التي يُتحدَّث بها في أكثــر من قطر إفريقي، ولها متحدِّثون كُثر نســبيّاً في معظم تلك الدُّول التي تعدُّ الموطن الأصل لتلك اللُّغات، ومن تلك اللغات: لغة الهوسا، والفُلفدي، والمادينغ (في غرب إفريقيــا)، ولغة لينْغالا، وبيتــي فانْغ (Beti -Fang)، (في وســط إفريقيا)، ولغة شيشْــوَا، وسيشْوانا (Sishewa، Setswana) (فــي الجنــوب الإفريقــي)، والسواحلية (في الشرق الإفريقي).

٢ - لغــات غالبة عابرة الحدود محدودة: وهي اللُّغات التي يُتحدَّث بها بشــكل محدود في دولتَين أو أكثر، أو هي لغــة غالبة في دولة واحدة، ومحدودة في دولة أخرى، ومن نماذجها: لغة يوربا، ولغة سيشوانا، فالأولى يَتحدَّث بها في نيجيريا حوالي (٢٠،٣)، ولكنَّها في جمهوريَّة بنين لغة أقليَّة،

---

(١) انظر: Heine and Nurse (ed). African Languages: An Introduction. (Cambridge Unv. Press. 2002). 1.

(٢) انظر: Akintunde. Oyetade. Ethno-Linguistic competition in the Giant of Africa. in: Andrew Simpson. Language Vitality in Africa. 172 - 198.

(٣) الأكاديمية الإفريقية للغات African Academy of Languages. ACALAN ، أنشئت عام ٢٠٠١م، ومقرها جمهورية مالي، وهي مؤسسة قاريَّة تعنى بدراسة اللغات الإفريقية وسبل تطويرها، ووضع الخطط والسياسات اللغوية، وحماية اللغات المهددة بالاندثار.

أمَّا لغة سيشوانا فهي غالبة في بوتسوانا (٨٠٪)، وهي في الوقت نفسه لغة محدودة في جنوب إفريقيا.

٣ - لغاتٌ غالبة غير عابرة للحدود: وهي اللغات التي يتحدَّث بها السَّواد الأعظم في دولة إفريقية واحدة، وليس لها وجودٌ معْتَبر في دولة أخرى، ومن نماذجها: اللغة الأمهريَّة في الحبشة، ولغة كيكوكو في كينيا، ولغة الزُّولو في جمهوريَّة جنوب إفريقيا، والولوف في السنغال.

وكما سبق تقريره؛ فإنَّ العلاقة بين الحدود السِّياسيَّة المفتعلة، وبين اللُّغات المنضوية في حيز تلك الحدود، علاقة سالبة؛ لذلك فإنَّ التَّقسيمات السابقة ليست ثابتة؛ إذ قد تكون اللُّغة منتشرةً في أكثر من دولة إفريقية، ولكنَّها غير غالبة في واحدة منها، وقد أشار الباحث إيبونوس في هذا المقام إلى وجود حوالي (٤٥) لغة مشتركة بين نيجيريا وبين جاراتها[١].

ج - لغات مهدَّدة بالاضمحلال أو الاندثار:

في ظلِّ تسارُع وتيرة التَّهديد الذي تمثِّله «اللُّغات القاتلة» ضدَّ اللُّغات الأقلِّ مناعةً في عصر العولمة والمعلوماتيَّة، فإنَّ كلَّ لغة بإفريقيا هي مهدَّدة بشكلٍ من الأشكال.

على سبيل المثال؛ تذهب الدِّراسات إلى أنَّ عدد اللُّغات في العالَم في عصر ما قبل التَّاريخ، كان بين (٣١،٠٠٠ - ٦٠٠،٠٠٠) لغة، وقد تقلَّص هذا العدد اليوم إلى حوالي (٦ - ٧) آلاف لغة، وإذا ما امتدَّت الحال على ما هي عليه الآن فإنَّ الباحثين يذهبون إلى الاعتقاد أنَّه بنهاية القرن الأوَّل من الألفيَّة الحاليَّة (٢١٠٠م) سوف تندثر نسبة (٥٠٪) من اللُّغات العالميَّة، بل إنَّ بعض المتشائمين يرفعون هذه النِّسبة إلى حوالي (٩٠٪)[٢]، أمَّا في إفريقيا؛ فإنَّ الباحث رولاند بريتون أكثر تشاؤماً؛ إذ توقَّع أن التَّحوُّل الكامل من اللُّغات الإفريقية إلى اللُّغات الاستعماريَّة سوف يتمُّ في غضون ثلاثة أجيالٍ من الآن[٣].

في هذا السِّياق، تذهب الدِّراسات إلى أنَّ اللُّغات الإفريقية هي الأكثر عرضة للاندثار في هذا العصر، وفي إحصاءاتٍ منذ عام ١٩٩١م، للباحث ماتِّياسْ وزميلَيه، تبيَّن أنَّ (٥٤) لغة إفريقية قد اندثَرت في غضون عقد من الزَّمن، وأنَّ (٤٩) كانت تحتضر آنذاك[٤]، ومن الأمثلة القريبة الأكثر وروداً بهذا الصَّدد حال أسرة اللُّغات الخويْسانيَّة (Koisan)، فقد وجد الباحث توم غولدمان وزميله وراينير فاسين Tom Guldman لله Rainer Vassen أنَّ لغات هذه المجموعة كانت تربو على المائة قُبَيل الاستعمار، ولكنَّها تقلَّصت في غضون قرن فحسب إلى حوالي الثُّلث، أي (٣٥) لغة[٥].

د - لغاتٌ تشكو غُربة في مواطنها:

لقد مُنيت اللُّغات الإفريقية بغربة بائسة في مواطنها على الرُّغم من أنَّ بعض تلك اللُّغات تحظى برمزيَّة عميقة للهويَّة الوطنيَّة للدَّولة / الدُّول التي تتحدَّث بها في تاريخها واجتماعها وثقافتها، كالأمهريَّة في إثيوبيا، والصوماليَّة، ولغة شُوانا في بوتسوانا وفي ج. جنوب إفريقيا، والتِّغريتيَّة في إريتريا، ولغة مادينغ في مالي وغينيا، وهوسا في نيجيريا وكاميرون وغانا.

مثال ما سبق؛ أنَّ اللُّغات المحليَّة في دول إفريقيا جنوب الصَّحراء (٤٨ دولة)، لا يُعترف بها في أيٍّ من تلك الدُّول بوصفها لغةً رسميَّة، اللَّهم إلاَّ في تسع عشرة دولة فحسب (جدول رقم ١)، وإنَّما العبرة باللُّغات الاستعماريَّة التي لا تمثِّل - في أحسن أحوالها - إلا نسبةً ضئيلةً بين (١٠ - ١٥٪) من السُّكان[٦]، وهذه النِّسبة الضئيلة هي نخبة

---

(١) انظر: Simpson، Andrew، Language Vitality in Africa، Op. cit. 172 - 198.

(٢) انظر: Zaline Makini، Roy-Campbell، The State of African Languages and the Globalization Language Politics، 36th Annual Conference on African Languistics، 2006 Sumerville، 21.

(٣) انظر: Roland J. L. Breton، Language in a Globalizing World، 214.

(٤) انظر: Bamgbose Ayo، African Languages Today: The Challenge، 3.

(٥) انظر: Heine and Nurse، op. cit. ٩٩.

(٦) انظر: Azadeh Shafaei، Mehran Nejati، Global Practices of Language Teaching: Proceedings of the ٢٠٠٨ International Conference.

المثقَّفين، ومعلوم أنَّ اللُّغات الاستعماريَّة تلك ليست لغةً أمٍّ لهذه النُّخبة المثقَّفة[1].

حتى إذا وردت الإشارة إلى اللُّغات المحليَّة في الدُّستور في بعض البلاد الإفريقية، فإنَّما هي إشارة خجولة كما في دستور ساحل العاج (٢٠٠٠م)، الذي ينصُّ على وجود «لغات وطنيَّـة» دون ذكر أيٍّ منها، بينما تنـصُّ المادَّة الأولى من الدُّستور على أنَّ لغة الدَّولة الرَّسميَّة هي الفرنسية[2].

ويتبدَّى عمق الإشـكال في كون اللُّغات الاسـتعماريَّة الوافدة فـي كلٍّ من الدُّول، هي لغـة التَّعليم في المراحل التَّعليميَّـة كلِّها، أمَّا اللُّغات المحليَّة فلا تتجاوز رسـميَّتها - فـي الغالـب - السَّـماح باسـتعمالها فـي المجالس البرلمانيَّـة، وفي المحاكم، وفي الدَّوائـر الحكوميَّة، وفي بعض البرامج الإعلاميَّـة، وكلُّ ذلك في حيز ضيِّق، وربَّما في حال الضَّرورة، فاللُّغة الاسـتعماريَّة الوافدة هي - في الواقـع العملي - صاحبة الحظـوة، فوصْفُ اللُّغة المحليَّة بأنَّها رسـميَّة لا يعني شـيئاً ذا بال فـي حقيقة الأمر، بل إنَّها قد تكون حجر عثرة أمام المتحدِّث بها في السِّـياقات والمواقف المذكورة.

أيضـاً؛ فإنَّ اللغة الاسـتعماريَّة، وإن لـم تكن ضمن اللُّغات الرَّسـمية بالدَّولة الإفريقية، فإنها تحظى بالاختيار في السِّياسات اللُّغويَّة على حساب اللُّغات القوميَّة المحليَّة، ومن مظاهر ذلك - مثلاً - اعتماد بعض الدُّول (المستعمرة الإنجليزيَّة) اللُّغةَ الفرنسيَّة بوصفها لغة ثانية في المراحل المتوسِّـطة أو الثَّانويَّة من التَّعليـم، مع وجود لغة أو لغات محليَّة يُدَّعى أنَّها «رسـميَّة»، ولكنَّها لا تُعْتَمَد في التَّعليم! وفوق ذلك، نجد ندرة حادَّةً في معلمي اللغة الفرنسـيَّة في تلك البلاد، وربَّما نفرة وعزوفاً من قِبَل الدَّارسين في تعلُّم الفرنسـيَّة، ولكنْ على الرُّغم من ذلك كلِّه، فإنَّ الفرنسيَّة أو الإنجليزيَّـة تُعتمد في التَّعليم، وتبـذل الدَّولة الجهود غير العاديَّة في سبيل تدريسها، وفوق ذلك تلجأ بعض الدُّول إلى اختيار أكثر من لغة استعماريَّة بوصفها لغةً رسميَّة متجاهلة عشرات اللُّغات المحليَّة، كالكاميرون، وموريشيوس، وغينيا الاستوائيَّة (الجدول رقم ٢).

هـ - لغاتٌ غير مكتوبة:

يرد وصف إفريقيا في بعض الدِّراسـات بأنَّها «القارَّة الشَّفاهيَّة» إشـارة إلى أنَّ تاريخها وثقافتها ومعارفها إنَّما هي شفاهيَّة غير مدوَّنة، أو أنَّ لغاتها على كثرتها لم تعرف أنظمة كتابيَّة، هذا الوصـف صحيح في ذاته، وإن لم يكن ذلك يعنـي تفضيلاً للمجتمعات الكتابيَّة على الشـفاهيَّة، فاللُّغات المكتوبة بإفريقيا قليلة، وهي حديثة باستثناء كتابة الأمهريَّة، ومن نماذجها: ألفبائيَّة بامون (Bamun) وضعها السـلطان إبراهيما انْجويا في الكاميرون في أواخر القرن التَّاسع عشر الميلادي، وألفبائيَّة لغة فايْ (Vai)، وهي من فروع المادينغ في ليبيريا وسيراليون، وضعها (Momolu Douwalou Boukele) عام ١٨٣٣م، وألفبائيَّة ماسـابا (Masaba) للبَمبارا بمنطقة كآرْتا في مالي اخترعت عام ١٩٣٠م علـى يـد (Woyo Couloubayi)، وألفبائيَّات لوما (Loma)، وكبيلي (Kpelle) وغورو (Guro) وإيبيبيو (Ibibio)، وألفبائيَّة انْكو وضعها الشَّـيخ سـليمان كانتيه ١٩٤٩م[3].

لذلك، اسـتثنى الباحث رولاند بريتـون، حين ذهب إلـى التَّنبُّـؤ باندثار وشـيك للُّغات الإفريقيـة، لغات في الشَّـرق الإفريقي من ذلك، وبخاصَّة: الأمهريَّة، والتغريتيَّة، والصُّوماليَّـة والسـواحليَّة، وكينياروانـدا، وكيرونْـدي، وملاجاشـي؛ لكونها لغاتٍ مكتوبةً ومستخدمةً في الإدارة والإعلام[4].

بالإجمال؛ فإنَّ اللُّغات الإفريقية تعاني تهديداً حقيقيّاً

(١) من الأمثلة في ذلك أن لغة ولوفْ بالسينغال يتحدَّث بها أكثر من (٩٠%) من السكان، بينما لا يتجاوز متحدثو الفرنسية (١٥%)؛ لكن الفرنسية هي اللغة الرسمية، ولم تعدَّ لغة ولوف بعدُ لغة رسمية إلى جانب الفرنسية، ينظر: Colonization، Globalization: Language vitality in Africa، ١٣.

(٢) انظر: Language and National Identity in Africa، ١٦٣

(٣) انظر: Gerard Galtier. Un Example d’Ecriture Traditionnelle Mandingue: Le «masaba» des Bambara-Masasi du Mali، Journal des Africanistes، Vol.57، No.1-2، (1987)، 255 - 266.

(٤) انظر: Roland J. L. Breton. Op. cit. 214.

في مواطنها، وذلك جراء إقصائها في السِّياسات اللُّغويَّة الحكوميَّة عن المشاركة الحقيقيَّة في مشروع التَّنمية؛ على الرُّغم من أنَّ تلك اللُّغات تضطلع بخصائص وإمكانات عدَّة ترشِّحها - بل تجعل مشاركتها ضروريَّة - للنُّهوض بإفريقيا، وتأكيد استقلالها الثَّقافي والفكري.

ثانياً: اللُّغة العربيَّة حضورها ومكانتها بإفريقيا:

إنَّ نظرةً عجلى في الخريطة اللُّغويَّة بإفريقيا تضع أناملنا على الوضع الحقيقي للُّغة العربيَّة بالقارة الإفريقية، وتكشف عن العلاقات المتشابكة بين اللُّغات الإفريقية وبين العربيَّة.

يتمظهر هذا أوَّلاً في العلاقة العضويَّة[1] بين اللُّغة العربيَّة وبين مجموعة كبيرة من اللُّغات الإفريقية؛ إذ إنَّ العربيَّة تقع ضمن المجموعة السَّاميَّة التي هي تفرُّع من أسرة اللُّغات الأفروآسيويَّة (عددها ٣٧١)، أمَّا بقيَّة الأسر اللُّغويَّة الإفريقية الثَّلاث، فهي: أسرة اللُّغات النيجركونغويَّة (١،٤٣٦)، والنيليَّة الصَّحراويَّة (١٩٦)، الخويسانْ (٣٥)[2].

والملاحظة السَّريعة فيما سبق؛ أنَّ اللُّغة العربيَّة تقع ضمن الأسرة الثَّانية من حيث الكثرة، وفوق ذلك تعدُّ العربيَّة أكثر اللُّغات الأفروآسيويَّة الأكثر انتشاراً؛ حيث يبلغ عدد المتحدِّثين بها أكثر من (١٥٠) مليون نسمة[3]، ومعظمهم بإفريقيا الشَّماليَّة، أمَّا عن انتشارها بإفريقيا تحديداً؛ فتفيد الإحصاءات أنَّ من بين (١٠٣٠) مليون نسمة بإفريقيا، بحسب إحصاءات عام ٢٠١١م، تتحدَّث بالعربيَّة نسبة تقارب (١٧٪) من هذا العدد[4]، بينما لا يتحدَّث بالسواحليَّة إلاَّ حوالي (١٠٪)، والهوسا (٥٪)، وهما اللُّغتان الأكثر انتشاراً بالقارة، فالعربيَّة - بلغة الأرقام - هي أكثر لغات القارة الإفريقية انتشاراً.

كذلك، فإنَّ للغة العربيَّة علاقاتٍ وظيفيَّة بلغات إفريقية كثيرة في الأسر الأخرى، من ذلك: علاقتها مع لغات الأسرة النِّيليَّة الصَّحراويَّة (كانوري، كانيمبو، زغاوة...)، واللغات النيجريَّة الكونغويَّة (بمبارا، جولا، سوسو، سوننكي، كبيلي، ولوف، فلفلدي، تمني، بساري...).

إنَّ للغة العربيَّة علاقات تاريخيَّة عميقة بهذه اللُّغات وتأثيراً واضحاً فيها[5]، وهو تأثيرٌ وصفه الباحث سلاوُو في مستوى الاقتراض بأنَّه (flood of words)؛ أي: «طوفان» من المفردات العربيَّة في اللُّغات الإفريقية[6].

بالإضافة إلى تلك الإحصاءات المؤكِّدة للحضور العربيِّ بإفريقيا، فإنَّ حضور اللُّغة العربيَّة بالقارَّة، من ناحية تاريخيَّة، حضورٌ قديم، سبق ظهور الإسلام بها، وذلك في مناطق الشَّرق الإفريقي، وبالتَّحديد: منطقة القرن الإفريقي، أمَّا في المناطق الدَّاخليَّة الأخرى فإنَّ الحضور العربيَّ بها قد رافق الحضور الإسلاميَّ في حدود القرن الثاني الهجري (الثَّامن الميلادي).

أيضاً، تظهر مكانة العربيَّة بإفريقيا باعتمادها على مستوى سياسيٍّ رفيع؛ لتكون لغةً رسميَّة بمنظَّمة الوحدة الإفريقية، وذلك مع اللُّغات الاستعماريَّة الثَّلاث (الإنجليزيَّة والفرنسيَّة والبرتغاليَّة) المعتبرة «لغات عمل» (working paper) رسميَّة بالمنظمة، وبذلك فإنَّ اللُّغة العربيَّة والسواحليَّة هما اللُّغتان غير الاستعماريَّتين المعترف بهما بهذه المنظَّمة، ومنذ عام ١٩٨٦م ارتأت المنظَّمة اعتماد

---

(١) العلاقة العضويَّة: تعني أوجه شَبَه وتماثُل كثيرة في المفردات، والاشتقاقات، ونظام الجمل، وغيرها من عناصر اللغة.

(٢) انظر: R. Blench. Archeology. Language. and the African Past. (Rowman Altamina. 2006). 91.

(٣) انظر: Bernard Comri (ed). The Major Language of South Asia. The Middle East and Africa. in: Cornelis H. M. Versteegh. ٢٢٦.

(٤) قد لا تكون هذه المقولة دقيقة؛ لكون هذا الإحصاء يشمل دول إفريقيا الشمالية، لكن حتى بطرح تلك الدول من الإحصاء فإن للعربيَّة بإفريقيا جنوب الصحراء حضوراً لا بأس به، غير أننا لا نملك إحصاءً عن ذلك.

(٥) انظر: Batibo. Herman. Language Decline and Death in Africa: Causes Consequences and Challenges. (Multilingual Matters). 1 - 15.

(٦) انظر: Adewuni Salawu. "The Spread of Revealed Religions in West Africa and Its implications for the Development of Translation". Journal of Translation. Vol.3. No.2. 2007. 30.

لغات إفريقية كبرى بوصفها لغات عمل رسـميَّة بالمنظمة، ولكن هذا المشروع لم يتحقّق في الواقع(١)، هذا من جانب.

من جانب آخر؛ فإنّ حضور اللّغة العربيَّة في بلدان إفريقيا بوصفها لغةً رسـميَّة حضورٌ ضعيف، فهي رسميَّة - وحدها - في السُّـودان، وموريتانيا، وجاء الاعتـراف بها بموريتانيا عن طريق عسـير عبـر احتجاجات واضطرابـات بين مناصري الفرنكوفونيَّة ومناصري العربيَّة(٢)، كما أنّ اللّغة العربيَّة رسميَّة إلى جانب الإنجليزيَّة والفرنسـيَّة في كلٍّ من: تشـاد، وجنوب السودان، وجزر القمر، وجيبوتي، أو إلى جانب لغة وطنيَّة، في: إريتريـا، والصُّومال، فالحاصل أنّ العربيَّة رسـميَّة في ثماني دُوَلٍ إفريقية ما عدا الدُّول المغاربيَّة (جدول رقم ١).

بناءً على المعطيات المذكورة وغيرها من الاعتبارات؛ فـإنّ مجموعةً من المفكّرين الأفارقة، سـواء داخل القارَّة أو خارجها من أفارقة الشَّـتات في الكاريبي وأمريكا، حين ظهـرت الحاجّة إلى اعتمـاد لغة إفريقية مشـتركة إبّان اسـتقلال الدُّول الإفريقية، قد رشّـحوا اللّغة العربيَّة لأن تكون اللّغة المشتركة الجامعة للدُّول الإفريقية الحديثة.

في هذا السِّياق؛ فإنّ من أبرز المفكّرين في تلك الحقبة المـؤرِّخ إدوارد بليـدن (١٨٥٢م - ١٩١٢م) Edward W. Bleyden، وقد ذهب إلى ترشـيح اللّغـة العربيَّة بوصفها لغة مشـتركة لحركة إفريقيا الكبرى (Panafricanism)، وحركة النّيغرتود (Negritude)، ودعا إلى تعميمها بوصفها لغـة غير غريبة على القارَّة، وغير حاملـة للأوزار التي تنوء بها اللُّغات الاسـتعماريَّة.. يقول: «إنّ لَمِمَّا يؤسى له في حال الإنجليزيَّة، وغيرها مـن اللّغات الأوروبيَّة في هذا الجزء من إفريقيا، أنّها قد أتت إلى شعوب إفريقيا وهي مقرونةٌ بالفُرقة والقهر، وخالية من أيِّ محتوى روحيٍّ، بينما ينظر الأفارقة إلى العربية بوصفها لغة دين وإعمار، وأنّها لغة روحيَّة»(٣)، وتظهر أهميَّة هذا الموقف من لدُن بليدن لكونه مسيحيّاً، ليس له في موقفه المنصف من العربيَّة والإسلام أدنى مصلحة شخصيَّة، كذلك، فإنّ شيخ أنتا ديوبْ كان من أحلامه الكبيرة إيجاد لغة إفريقية مشـتركة غير استعماريَّة، لكنّه لم ينصّ على العربيَّة تحديداً بوصفها لغة مشتركة لإفريقيا(٤).

موقفٌ أكثـر تأكيداً في الإعلان عن الهويَّة الإفريقية، وتحديدها بالإسلام، نجده عند المفكر علي المزروعي؛ إذ ذهب إلى الإعلان عن فكـرة «إفريقيا الكبرى» Greater Africa، يدَّعي فيها أنّ الجزيرة العربيَّة جزءٌ من إفريقيا، وإنّما تمّ فصلها عن إفريقيا على يد الإمبرياليِّين في مؤتمر برليـن عـام ١٨٨٨م، حتى يفصلوا بين بعـض العرب عن بعضهم الآخر، وينزعوا الإسلام عن الهويَّة الإفريقية(٥).

بالعكـس؛ نجد موقفاً متصلِّباً - لعـلَّ عدائيّاً - ضدَّ اللغة العربيَّة والإسلام من لدن طائفة من الكُتَّاب والمفكرين الأفارقـة، نذكر منهـم هنا الروائي وول سـوينكا Wole Soyinka حامل نوبل في الأدب؛ إذ يقول: «الإسـلام ليس ديانـةً إفريقية، وإنّه ليس إلا مثل المسـيحيَّة.. عندنا في القارة الأمّ الإسلام ليس إلاّ محطَّة لا بدَّ لنا من العبور منها قبل الحصول على الرُّوح الحقيقيَّة للسُّود»(٦)، ومن المفارقة أن يدعو سـوينكا إلى اعتماد اللّغة السواحليَّة لغة مشتركة لإفريقيـا، والظَّاهر أنّه قد ألجـئ إلى حيلة المغلوب؛ فما كان منه إلا ترشـيح السواحليَّة فراراً من شبح العربيَّة ولغة الهوسا القريبة منه بنيجيريا.

ثالثاً: اللُّغة العربيَّة وتحدِّيات مستجدَّة:

علـى الرُّغم من المقوِّمـات الذَّاتية التـي تتمتَّع بها اللُّغـة العربيَّة بوصفها لغةً قويَّة ثابتـة، مؤثِّرة في غيرها،

---

(١) Bamgbose Ayo. African Languages Today: The Challenge. 11.

(٢) خلف، عبد الرحمن: اللسان العربي بين الانتشار والانحسار، سلسلة دعوة الحق (عدد ١٠١)، مكة: رابطة العالم الإسلامي، ص ٨٣.

(٣) انظر: Bleyden. (1994. 70). quoted in: Mazrui. Alamin M. English in Africa: After the Cold War. (Clevedon: Multilingual Matters. 2004). 66.

(٤) انظر: Cecile B. Vigouroux. Globalization and Language Vitality. op. cit. 184.

(٥) انظر: Newell. Stephanie. West African Literatures: Ways of Reading. 47.

(٦) انظر: Op. Cit. 48.

حاوية لزخـم روحيٍّ كبيـر، فإنّها تعاني تحدِّيـات كبيرة في ظـلِّ الظُّروف الجديدة التـي تفرضها العوْلمة وعصر المعلوماتيَّة، وغيرها من مستجدَّات العصر.

ونستعرض بعض تلك التَّحدِّيات في الفقرات أدناه:

أ - ضعف الحضور المحليِّ والعالمي:

ما سبقت الإشارة إليه من غربة للُّغات الإفريقية داخل أوطانها يكاد يصدُق في اللُّغـة العربيَّة في الوطن العربيِّ، فالمجتمعـات العربيَّة تعاني «غزو» اللُّغات الأجنبيَّة لها في مختلف الميادين: في الإعلام، وفي المؤسَّسـات التَّعليميَّة، وفي السُّوق والشَّارع.

أمَّا ضعف الحضور العربي في المستوى الدُّولي؛ فإنَّ له علاقة بالنَّظرة الدُّونية لمتحدِّثي العربية إلى أنفسـهم، وقد لاحظ الكثير من الدِّبلوماسيِّين أنَّ حضور اللُّغة العربيَّة مثلاً فـي اجتماعات الأمـم المتحدة إنَّما هـو في إلقاء الخطـب وترجمتها، أمَّا في أروقة الاجتماع، وفي المحافل المصاحبـة، فإنَّ العرب أنفسَـهُم يتخاطبـون فيما بينهم بالإنجليزيَّة أو الفرنسـيَّة، وإذا خاطَبَهـم غيرهم بالعربيَّة فكثيراً ما يردُّون عليه بالإنجليزيَّة أو بلغة أجنبيَّة!

ب - مزاحمة اللَّهجات القُطريَّة للفصحى:

تعاني اللُّغة العربيَّة الفصحى «تسوُّسـاً» وهجمة داخليَّة من لدن دعـاة العاميات القطريَّة في كلِّ بلدٍ عربيٍّ، وتتجاوز هذه الدَّعوة استخدام اللَّهجات المحليَّة في المستوى المحكي اليوميِّ إلى استخدامها في مستوى الكتابة والتأليف والتَّربية والتَّعليم، ومن مخاطـر هذه الدَّعوة أنها تفضي إلى تقويض مقوِّمة أساسيَّة في اللُّغة العربيَّة، قلَّما حظيت بها لغة أخرى من اللُّغات البشريَّة الحاليَّة، ألا وهي خاصيَّة الثَّبات والرُّسوخ التي لزمت اللُّغة العربيَّة منـذ أكثر من ألف وأربعمائة عام؛ إذ لم يطرأ عليها تغيير جذريٌّ في أيِّ مستوى من مستوياتها اللُّغويَّـة تفضي إلى تفكيكها إلـى لهجات أو - حتى - لغات متباينة كما الحال في اللاَّتينيَّة مثلاً.

إنَّ وجـود اللَّهجـات في أيَّة لغة ظاهـرةٌ طبيعيَّة في التَّنـوع المودَع في الآفاق والأنفـس واللُّغات، وتلك ظاهرةٌ ماثلة الآن بشكل متفشٍّ في الإنجليزيَّة والفرنسيَّة تحديداً، فهناك إنجليزيَّة أمريكيَّة، وبريطانيَّة، وأستراليَّة، وهنديَّة... وفرنسـيَّة بلجيكيَّـة، وكنديَّة، وفرنسـيَّات إفريقية؛ لذلك وجـدت مبادرات في الإنجليزيَّة مثـلاً، لمحاولة الحدِّ من «انزياح» الإنجليزيَّات وتباعُدها، بل محاولة توحيد الأشكال الإنجليزيَّة المتجذِّرة في شـكل لغويٍّ نموذجي مشـترك؛ وبخاصَّة الإنجليزيَّة البريطانيَّة، والأمريكيَّة، والأستراليَّة(١).

عليـه؛ فإنَّ تشـجيع العاميَّات لا يخـدم تقوية اللُّغة العربيَّـة على صعيـد عالَميٍّ، خصوصاً فـي هذا العصر الذي هي أحـوَج ما تكون فيه إلى التَّكتُّل وجمع الشَّـتات في مواجهة غيرها من اللُّغات التي تعتمد على استراتيجيَّة التَّجمُّع، واستقواء بعضها ببعض.

ج - تهميشها في التَّعليم الجامعي والبحث العلمي:

مـن التَّحدِّيات التـي تواجه اللُّغة العربيَّة تهميشـها فـي التَّعليم الجامعي، فهي يوماً بعـد يوم تفقد بعضاً من المساحات والمساقات الدِّراسـيَّة المخصَّصة لها تقليديّاً في الجامعات والمؤسَّسـات التَّعليميَّـة العربيَّة، بالمقابل تتَّسـع دائرة اعتماد اللُّغة الإنجليزيَّة في أروقة الجامعات، وقد كان ذلـك في العقود الماضية مقتصـراً على المواد الطَّبيعيَّـة في الطب والهندسـة وغيرهما، ولم تفلح جهود التَّعريب فـي مواجهة هذا التَّحدي، وفـي الوقت الحالي اتَّسع الإشكال وتعقَّد، فأصبحت الإنجليزيَّة تطغى على لغة الدِّراسة في الإنسانيَّات.

بُعدٌ آخر من التَّحدِّي يكمن في مجال النَّشـر والبحث العلمـي؛ إذ لا يُعتـرف باللُّغة العربيَّة في النَّشـر العلمي بالمجلات العالميَّة، فالباحث والأسـتاذ الجامعي في اللُّغة العربيَّة مثلاً لا مجال له للتَّرقِّي العلميِّ في بعض الجامعات العربيَّة إلاَّ عبر النَّشر باللُّغة الإنجليزيَّة أو غيرها من اللُّغات العالَميَّة.

د - عزوف الجيل الجديد عن تعلُّمها:

عـزوف الجيل الجديد عن تعلُّم اللُّغـة العربيَّة ظاهرةٌ مسـجَّلة في دراساتٍ عدَّة، وله أسـبابٌ كثيرة، لعل أبرزها:

(١) انظر: Miriam A. Locher، Jurg Strassler، Standard and Norms in the English Language، in: Crystal، David. English as a Global Language، (Cambridge University Press، 1997)، 48.

ضيق فـرص التّوظيف أمـام خريجي تخصُّـص العربيَّة، والنَّظرة الدُّونية الشَّـعبيَّة إلى مدرِّسيها، وشكوى الدَّارسين من صعوبتها، يسـتوي فـي ذلك العـرب وغيرهم، وهذه الإشكالات وأمثالها ليسـت بنيويَّة في اللُّغة العربيَّة نفسها، وإنَّمـا هي إفـرازاتٌ لأوضاع خارجة عن طبيعـة العربيَّة، فالقول بصعوبة العربيَّة - مثلاً - ألصقُ بطرق التَّدريس منه باللُّغة نفسـها، فطرق التَّدريس الضَّعيفة هي المسؤولة عن تقديم العربيَّة للدَّارسين مشـحونةً بالقواعد والآجروميَّات الملغزة، والمسـمَّيات الوظيفيَّة العميقة، والأمر أشـدُّ إذا كان الدَّارسـون من غير العرب، بينما نجد اللُّغات الأخرى (الأوروبيَّة خاصَّة) قد قطعت في تدريس لغاتها مسـافات شاسعة، وركَّزت في تدريسها وتقديم قواعدها على الأشكال النَّمطيَّة المحكيَّة، أو ما يصطلَح عليه بالطَّريقة المباشـرة (Direct Method) في تدريس اللُّغات.

هـ - تأثرها الواضح بالمعلوماتيَّة:

أدى شيوع شـبكة الإنترنت وانتشار استعمال الشَّباب لها إلى تأثيـر واضح في اللُّغة العربيَّة الحديثة، وقد أطلق بعض الباحثين على هذا النَّمط من العربيَّة (e - Arab)، «عربيَّة إلكترونيَّة»، وهي العربية المسـتعملة في الإنترنت والرَّسائل القصيرة في الهواتف النَّقالة.

ومن بعض ملامح هذه العربيَّة:

- اقتراض المفردات الكثيرة من الإنجليزيَّة والفرنسيَّة خاصَّة، اقتراضاً غير مسـوَّغ في معظـم الأحيان[١]، ومن نماذج تلك المفـردات: كوبي (copy)، كليك (/ cliquer click)، فورمات (format).

- التَّحوُّل اللُّغوي من العربيَّـة إلى الإنجليزيَّة والمزج بينهما.

- اسـتعمال الأرقام اللاَّتينيَّـة؛ للتعويض عن أصوات عربيَّة، مثل (٣rabi، ٧abibi، ٦ayib، ٩iyam).

- استعمال الحرف اللاَّتيني لكتابة النُّصوص العربيَّة.

- عدم الانصياع للقواعد اللُّغويَّة الإلزاميَّة في العربيَّة.

وفي هذا تقول الباحثة أنيسـة داودي: «إنَّ أهمَّ سمة للعربيَّة الإلكترونيَّة هي مسخ اللُّغة»[٢]، وحتى في المستوى الأدبي من الذَّوق والخيال والتَّشـبيه، فإنَّ ثمَّ تحوُّلاً واضحاً في العربيَّة، كما في المثال الآتي: «المواطن معطَّل، لا يوجد عليه اي شي، فلا بد من الفرمتة من الفيروسات حتى يرجع مخُّه جديد ونظيف كما كان»[٣]، فاللُّغة هنا ممسـوخةٌ حقّاً في مستوى المفردات والتَّراكيب والخيال.

رابعاً: فُرصٌ وإجراءات لنجاحات مستقبليَّة:

على الرُّغم من الإشـكالات الكثيرة المحفوفة باللُّغات الإفريقيـة، والتَّحدِّيات التـي تعترض اللُّغـة العربيَّة في إفريقيا وفي الوطن العربيِّ، فإنَّ ثمة فرصاً موجودة يفضي استغلالها إلى مستقبلٍ حقيقيٍّ للغة العربيَّة بإفريقيا.

وفـي الفقـرات الآتية عـرضٌ لبعض تلـك الفُرص والإمكانات:

أ - بعث العربيَّة بوظائفها المتعدِّدة:

تمتاز اللُّغة العربيَّـة بإفريقيا جنوب الصَّحراء بكونها متعدِّدة الوظائف، وقد يبدو ذلـك بدهيّاً وعامّاً بين جميع اللُّغات البشـريَّة؛ لكنَّ هذه الميزة في اللغة العربيَّة تنفرد بظهورها بقوَّة على جميع مستوياتها وأبعادها متزامنةً، فهي لغة التِّجارة والسِّياسة والدِّين والثَّقافة في الوقت نفسه.

عليه؛ فإنَّ مستقبل اللُّغة العربيَّة مرهونٌ بمدى نجاحها فـي الظهور في مختلف الصُّعـد، خصوصاً في المجالات التي يتميَّز بها عصر المعلوماتيَّة، فإذا أثبت متحدِّثو العربيَّة أنَّها جديرةٌ بالاسـتخدام في ميادين الاتِّصال، والمعاملات التِّجاريَّـة، والبثِّ الإعلاميِّ، فـإنَّ تبنِّي مجتمعات إفريقية أو غيرها من المجتمعات للغة العربيَّة في تلك المناشـط الحياتيَّة سوف يكون سلساً.

تجدر الإشـارة إلى أنَّ اختزال العربيَّـة في المجال

(١) انظـر: Daoudi, Anissa. Globalization and E-Arabic: The Emergency of a New Language at the Literal and Figurative Levels, in: Rodopi, (ed), Language Contact in Times of Globalization, (N.Y: Editions Rodopi, 2011), 61 - 76.

(٢) انظر: Daoudi, Anissa, Op. cit.

(٣) انظر: Daoudi, Op. cit. 73.

الدِّيني بإفريقيـــا خاصَّة قد وقع في عصور الضَّعف الكليِّ للأمَّة الإســـلاميَّة، وليس الوضع الرَّاهـــن إلاَّ نتيجة لهذا الضَّعـــف، فإفريقيا اليوم لا يعوزهـــا حفظة المقامات، ولا الشُّعراء الفطاحل، ولا النَّحويُّون الجهابذة، مع أهمية ذلك، ولكنَّهـــم – حتى في هذا المجال – لا يزالون يعيشـــون في القوالب المستهلكة؛ لا يبدعون وإنَّما يجترُّون.

والتَّحدِّي القائم هو: كيف نخرج بالعربيَّة بإفريقيا من لغة «محنَّطة» إلى كائنٍ حيٍّ نشط منتج فعَّال؟ على سبيل المثال؛ فإنَّ لغة السواحلية التي نشأت من رحم عربيٍّ، وانتشرت على امتداد السَّواحل الشَّرقيَّة الإفريقية وفي وسطها، حين أثبتت وجودهـــا وجدارتها، بوصفها لغة تجـــارة بامتياز، فإنَّ الدُّول الحديثة في شـــرق إفريقيا، إبَّان استقلالها، لم تر غضاضة في اختيار هذه اللُّغة لغةً رســـميَّة بشـــكل من الأشكال، بدأ ذلك بالزَّعيم نيريري (Julius Nyerere) الذي اتَّخذ قراراً سياسيّاً شُجاعاً بترسيم الســـواحلية لغةً وطنيَّة لتنزانيا، أما كينيـــا ويوغندا وبورندي ورواندا وكونغو – كينشاســـا (زائير ســـابقاً)؛ فقد اعتمدت الســـواحلية لغة وطنيَّـــة إلى جانب الإنجليزيَّة الاستعماريَّة (الجدول رقم ١).

ب – توظيف العربيَّة في جميع فروع العلم والمعرفة:

تقدَّم في استعراض سمات اللُّغات الإفريقية وخصائصها أنَّها لغات كثيرة كثرة قد توصف بأنَّها فاحشـــة، لكن من بين تلك اللُّغات لغات عملاقة، إنَّ هذه السِّمة يمكن استثمارها في علاقـــة اللُّغة العربيَّة بتلك اللُّغات؛ إذ قد ثبت أيضاً أنَّ اللُّغات العظمى بالقارة هي ذات علاقـــة قويَّة بالعربيَّة: إما عضويَّة بكونها في مجموعة أســـريَّة واحدة مـــع العربيَّة، أو وظيفيَّة بسبب طول احتكاك تلك اللُّغات بالعربيَّة وتأثُّرها بها.

في هذا الجانب؛ فإنَّ اللغة العربية قد تضع لنفســـها قدمـــاً ثابتة بإفريقيا إذا وظَّفت نفســـها في فروع المعرفة المعاصرة، وسوف ينتج عن ذلك اقتراض اللُّغات الإفريقية الكبرى من العربيَّة في تلك المجالات الحديثة، بل ســـوف يتعـــدَّى التَّأثير من الاقتراض المحض إلى تأثُّر تلك اللُّغات بالعربيَّة في المستويات اللُّغويَّة الخطابيَّة الأخرى، وسيمهِّد لهذا التَّأثر ويســـهِّله العلاقة العضويَّة القائمة بين العربيَّة وبين اللُّغات الإفريقية.

ج – دعم اللُّغات ذوات العلاقة بالعربيَّة:

فـــي هذا العالَم ذي الصِّبغة الكتليَّة لا يمكن لأيِّ عنصر من عناصره الظُّهور والهيمنة وحده إلاَّ من خلال الاســـتقواء بغيره، بل إنَّ قانون هذا العالم الكتلي يرفض الانزواء، ويهدِّد كلَّ عنصر منعزل فيه بالاندثار والـــزَّوال، وهكذا، فإنَّ اللغة العربيَّة، أو غيرها من اللُّغات، لا يمكنها أن تبقى في المعترك اللُّغويِّ الرَّاهن، أو أن تتبوَّأ مكانة لنفسها، وهي منعزلة، وإنَّما يتحقَّق ذلك عبر شراكة و «تحالفات لغويَّة» كبيرة.

هذا، ولا شكَّ أنَّ دعم أيَّة لغة إفريقية كبرى، لَهو دعمٌ غير مباشـــر للغـــة العربيَّة؛ لما قد ســـبق بيانه من علاقة عضويَّـــة بين معظم تلك اللُّغات وبين العربيَّة، على ســـبيل المثال؛ فقـــد تنبَّه بعض الباحثين إلـــى أنَّ الارتقاء باللُّغة الســـواحليَّة بوصفها لغـــة وطنيَّة بتنزانيـــا وكينيا قد أدَّى إلـــى ترك الكثير من المفـــردات المقترضة من الإنجليزيَّة واســـتعمال مفردات عربيَّـــة مكانهـــا، أي أنَّ هناك تحوُّلاً «سُـــفليّاً» من الإنجليزيَّة إلى العربيَّة عن طريق السواحليَّة، وهذا في مجـــال الإدارة والعلوم والتِّجارة والإعلام خاصَّة، فالكلمة (ripoti) أي: تقرير، قـــد غُيِّرت إلى (taarifu) تعريفة، وكلمة (korti) المقترضة من الإنجليزيَّة (court)، غُيِّرت إلى (mahkama)، وكذلك كلمة (jaji) المقترضة من كلمة (judge) غُيِّرت إلى العربية (hakimu)، وكلمتا (elimujamii، elimunafsi) قـــد اقتُرضتا من العربيَّة وطُرحت الإنجليزيَّة (sosholojia، saikoloji)[1].

د – الاستثمار في الفُصحى بإفريقيا:

إذا كانـــت العربيَّـــة واللُّغات الإفريقية كلتاهمـــا مهدَّدتَين بالإنجليزيَّـــة الساكســـونيَّة، فـــإنَّ العربيَّة تنفـــرد بأنَّها مهدَّدة بالعاميَّـــات القطريَّة، كما تنفرد اللُّغـــات الإفريقية بأنَّها مهدَّدة باللُّغات الاســـتعماريَّة الأخرى، حتى أضعف تلـــك اللُّغات، أي: الإسبانيَّة التي لا وجود لها إلاَّ في دولة واحدة (غينيا الاستوائية).

وعلى الرغم مـــن ذلك فإنَّ كُلاً مـــن العربيَّة واللُّغات

(١) انظر: Versteegh, Cornelis H. M., Versteegh Kees V. The Arabic Language, (Edingurgh University Press, 2001), 230.

الإفريقية لهـا الكثير من فُرص العطـاء والأخذ في هذا السِّياق، ويظهر هذا فيما يأتي:

- أنَّ وضـع العربيَّة بإفريقيا - عامَّة - وضعٌ جيِّد، بل إنَّ النَّظرة إليها في المجتمعات المسلمة ما زالت تقديسيَّة، عليه، فـإنَّ العربيَّة ليسـت أمامها عقبة في «اسـتمالة» الأفارقة إلى نفسها، وينبغي أن يبدأ ذلك في مستوى شعبيٍّ جماهيريٍّ، وإذا ما تحقَّق ذلك فإنَّ الاعتراف الرَّسميَّ باللُّغة العربيَّة سيكون تحصيلاً للحاصل.

- أنَّ إفريقيا مرشَّحة بأن تكون أرضيَّة خصبةً لمواجهة الهجمة العاميَّة ضد الفصحى؛ ما دام أنَّها منطقة «محايدة»، أو أرض «فطرة لغويَّة»، لم تشُبْها شائبة العاميَّات القطريَّة.

هذا، ومن الإجراءات الممكنة القريبة المنال في هذا الوقت اسـتثمار الدُّول العربيَّة في الجامعات الإسلاميَّة / العربيَّة الحديثة التي بدأت تشـيع في الـدُّول الإفريقية، ونعني بـ «الاسـتثمار» معناه العلمـي الدَّقيق الذي يُراد به إعطاء القليل وأخذ الكثير.

هـ - عولمة الحرف العربي:

سـبقت الإشارة إلى أنَّ من إشكالات اللُّغات الإفريقية أنَّها ما زالت في طور الشـفاهيَّة، وقد يكون هذا الإشكال مدخلاً مهمّاً، وبوَّابةً مفتوحة أمام العربيَّة؛ لإسـداء خدمة تاريخيَّة إلى اللُّغات الإفريقيـة، ويتحقَّق ذلك بوضع نظام كتابيٍّ للُّغات الإفريقية بالحرف العربيِّ، ولا شـكَّ أنَّ ذلكَ يعود على اللُّغة العربيَّة نفسـها بالنَّفـع الكثير في العصر الرَّقمي الذي نحن فيه.

تجدر الإشـارة إلى أنَّ العربيَّة قد سـبقت إلى إمداد بعض اللُّغات الإفريقية بنظامها الكتابي الأوَّل قبل الحضور الأوروبي إلى القارة وعُرف بـ «العَجَمي»؛ لذلك حين وفدت تلك اللُّغات الاسـتعماريَّة إلى إفريقيا؛ فإنَّ أوَّل ما قامت به إزاحة الحرف العربيِّ عن تلك اللُّغات واستبدلت به الحرف اللاَّتيني، حدث ذلك في السـواحليَّة، والهوسـا، واليوربا، والفلفلدي، والمانديـغ، وغيرها من الكتابات[1]، كما حدث في غير إفريقيا في إندونيسيا وتركيا.

لكـن هذه المبـادرة كانت من أصحاب تلـك اللُّغات أنفسـهم، ومحصـورة في نطـاق تواصليٍّ ضيِّـق (دعوة ومراسـلات، وتدوين مذكرات)؛ لذلك، فإنَّ السِّمة الغالبة في تلـك «العجميَّات» أنَّها غير مُمَنْهجـة، وغير ثابتة في الإملاء؛ حيث يختلف هجاء الأصوات والكلمات بين منطقة وأخرى، ومن شخص لآخر[2]، وطبقاً لإحصاءات اليونسكو فـإنَّ أكثر من (٥٠٪) من الرَّاشـدين بمنطقة سـنيغامبيا (السـنغال، وغينيا بيسـاوْ، وغامبيا)، من قبائل ماندينْكا، يكتبون بالعجمي بشكل من الأشكال، وهذا رأسمال مهمٌّ في مشروع تطوير «العجميَّة» بإفريقيا جنوب الصَّحراء.

إذن، توجـد فُـرصٌ كبيرة بحـوزة العربيَّة لوضـع نظام كتابيٍّ شـامل للُّغات الإفريقية، والمشـاركة في برنامج موسَّـعٍ لمحو الأميَّة، ولعلَّ المهمَّة أسـهل من ذي قبلُ بتقدُّم الوسـائل التكنولوجيَّة، ووفرة الدِّراسات اللِّسانيَّة عن لغات إفريقيا، ووجود حَمَلة شهادات عليا في الدِّراسات العربية في كلِّ بلدٍ إفريقي.

أيضـاً، تجدر الإشـارة إلى أنَّ منظمة «إيسيسـكو» ISESCO، قـد بادرت بمشـروعات مشـكورة في هذا المجـال، غير أنَّهـا محصورة باللُّغات الكبرى التي سـبق وجود «عجميَّات» بها، كما نحتْ منحى تجزيئيّاً للُّغات، وكان الأجدر - في رأينا - توحيد الجهود في جهدٍ شـامل جبَّار يغطي كبريات لغات القارة.

خاتمة:

من خلال اسـتنطاق واقع كلٍّ مـن اللُّغات في إفريقيا واللُّغة العربيَّة في الوطن العربيِّ؛ تبيَّنت جملة اسـتنتاجاتٍ على النَّحو الآتي:

- أنَّ إفريقيـا مجال خصبٌ لتفاعُل اللُّغات وتلاقحها، وأخـذ بعضها من بعض، وقد تحقَّـق ذلك في القديم بين

---

(١) انظر: Jacques Maurais، Michael A. Morris. Language in a Globalizing World، (Cambridge University Press، 2005).

(٢) انظر: Vydrin، Valentin. The Arabic Script in Africa: Usage Diversity and Dynamics of a Writing System، A Workshop، University of Cologne، April 06-7، 2010.

العربيَّة واللُّغات الإفريقية الكبرى.

- أنَّ اللُّغات الإفريقية تشـهد تهديداً حقيقيّاً، وهجمةً شرسة من لدن اللُّغات الاستعماريَّة (الإنجليزيَّة الساكسونيَّة خاصَّة)، هجمة تهدِّد وجود اللُّغات الإفريقية.

- أنَّ العلاقة بين اللُّغة العربيَّة وبين إفريقيا علاقةٌ جدُّ وثيقة، عميقة الجذور متشابكة الخيوط؛ بكون العربيَّة جزءاً في فصيلة اللُّغات الإفريقية - الآسـيويَّة، وأخذ الكثير من اللُّغات الإفريقية عناصر كثيرة من العربيَّة.

انطلاقاً من المعطيات المذكورة، يجيب هذا المقال عن السُّؤال المطروح في مستهلِّ المقال: ما مستقبل اللُّغة العربيَّة في إفريقيا جنوب الصَّحـــراء؟ بالقول: إنَّ فُرص النَّجاح في المســتقبل مفتوحة على مصراعيها أمام العربيَّة بإفريقيا، غير أنَّ هذا النَّجاح منوطٌ بمستلزمات ومقدِّمات، منها:

- حسن توظيف الفُرص التي يتيحها عصر العولَمة من تكثيف في التَّواصل والأخذ والعطاء بين الثَّقافات، وسرعة في نشر المعلومات، وشيوع الوسائل التكنولوجية.

- دعم اللُّغـــات الإفريقية الكبرى القريبة من العربيَّة، كالسواحليَّة، والهوسا، والصُّوماليَّة.

- تقديـم العربيَّة إلـــى إفريقيا في صورتهـــا الكليَّة المســتوعبة للوعاء الحضاريِّ، والاســتثمار الحقيقي في وسائل التَّواصل الرَّقمي بالعربيَّة في إفريقيا.

إنَّ اللُّغــة العربيَّة لفي موقع متميِّز للوفاء بمســتلزمات النَّجاح المنشود بإفريقيا واستحقَّاقاته؛ بما تحويه العربيَّة من طاقات ذاتيَّة وروحيَّة؛ لتخطِّي عقبات المستقبل وتحدِّياته.

الجداول:

جدول (١): اللغات الوطنية الرسمية بالدول الإفريقية جنوب الصحراء

الدولة	اللُّغة الرَّسميَّة		لغات محليَّة
	استعمارية	وطنيَّة قوميَّة	
إثيوبيا	إنجليزيَّة	أمهريَّة	عفر، أرومو، سيداسو، صومالية، تغرينيَّة
إريتريا		عربيَّة	إنجليزيَّة، إيطالية، تغر، عفر، كونما، أمهريَّة
بوتسوانا	إنجليزيَّة	سيشْوانا	كالاتّغا
بوروندي	فرنسيَّة	كيروندي	سواحلي
تانزانيا	إنجليزيَّة	سواحليَّة	عربية، سوكوما
تشاد	فرنسيَّة	عربية (تُرك)	كانوري، سارا
جنوب السودان	إنجليزيَّة		دينكا، نوير، باري، زانْدي، شلك
جزر القمر	فرنسيَّة	عربيَّة	القمريَّة
جنوب إفريقيا	إنجليزيَّة	(٩ لغات)	زولو، اندبِيلي، سوسا
جيبوتي	فرنسيَّة	عربيَّة	عفر، صومالية
رواندا	فرنسية	كينيا رواندا	سواحليَّة
سوازيلاند	إنجليزيَّة	سيسْواتي	سيسوتو، نيانْجا، لوزي، تونْغا
السودان		عربيَّة	
الصومال		عربيَّة، صوماليَّة	إنجليزيَّة، ايطاليَّة
كينيا	إنجليزيَّة	سواحلية	كيكويو، كامبا، ليو، أرومو، لويا
ليسوتو	إنجليزيَّة	سيسوتو	سوسا، زولو
مدغشقر	فرنسيَّة	ملاجاشي	
موريتانيا		عربيَّة	ولوف، سوننكي، بولارْ
نيجيريا	إنجليزيَّة	هوسا، يوربا، إيبو	فولاني، إبيبيو

جدول (٢) اللغات الاستعماريَّة الرَّسمية بالدُّول الإفريقية جنوب الصحراء[1]

الدولة	الدُّول
إنجليزيَّة	بوتسوانا، ليسوتو، ملاوي، ناميبيا، ج. إفريقيا، سوازيلاند، زامبيا، زيمبابوي إثيوبيا، كينيا، جنوب السودان، تنزانيا، يوغندا، كاميرون، غامبيا، غانا، ليبيريا، سيراليون، نيجيريا، موريشيوس، سيشل
فرنسيَّة	بوروندي، جيبوتي، رواندا، كاميرون، ج. وسط إفريقيا، كونغو - برازفيل، كونغو الديمقراطية، إفريقيا الوسطى، غابون، توغو، بنين، بوركينا فاسو، ساحل العاج، غينيا، مالي، نيجر، السنغال، جزر القمر، مدغشقر، موريشيوس، غينيا الاستوائية
برتغالية	انغولا، موزامبيق، ساو تومي، كاب فيردْ، غينيا بيساو
إسبانيَّة	غينيا الاستوائيَّة

(١) انظر: Adapted from: Africa Institute of South Africa. Africa at a Glance: Facts and Figures. 10th Edition. http:site.ebrary.com/id/١٠٥٧٤٦٥٨